من الألم الى الأمل

الشمس لا تشرق في منتصف الليل،

ولكن في عتمة اليأس ينبت الأمل

أنا من قرية الرامي بريف إدلب. ولدت لعائلة مكونة من اثني عشر شخصاً، أبي وأمي وخمسة شبان وخمس فتيات. أحب طفولتي كثيراً. كنا أسرة سعيدة وعلاقاتنا مع بعضنا جيدة جداً ولم تكن هناك مشاكل والحمد الله. عندي شغف كبير بالحياة. منذ طفولتي وأنا أحب الحياة وأفعل كل ما يسعدني. كان الجو مهيئاً لنا من قبل أمي وأبي؛ معاملتهم لنا جيدة ولم يحرمانا شيئاً. رفضت أن أكملها دراستي ولا أعرف السبب، مع أنني كنت جيدة وأحب المدرسة، لكن فجأة خطر لي التوقف. تجربتي المدرسية كانت جيدة جداً؛ سواء مع الأصدقاء أو مع الأساتذة. والأوقات التي أمضيتها في المدرسة راسخة في ذاكرتي من الصف الأول وحتى السابع وكان فيها الكثير من الذكريات الحلوة. لو يرجع بي الزمن إلى ذلك الوقت كنت سأتابع تعليمي بالتأكيد.

كنا خمس فتيات في البيت وكانت لنا أجواؤنا مع بعضنا. كنت المشاغبة الوحيدة بينهن وأيضاً أشاغب مع الصبيان. عندي شغف كبير بالحياة، وأحمد لله أنني كبرت ووعيت وبقي عندي هذا الحب للحياة. كانت أسرتنا جميلة جداً. وحتى بداية الأحداث كان وضعنا جيداً جداً.

بطبيعتي أحب الناس كثيراً وعندي العديد من الرفيقات. أنا وابنة عمي كنا صديقتين مقربتين، كان بيتهم قريباً من بيتنا وكنا نزور بعضنا دائماً؛ نسهر ونشرب الشاي والمتة. خصصنا يوماً عندها ويوماً عندي وثالثاً لزيارة ابنة خالي وهي صديقتنا أيضاً. ونذهب لزيارة رفيقات المدرسة المقيمات في الحارة نفسها. كنا نخرج ونسهر كثيراً. كانت الطفولة أسعد وأجمل الأيام. كانت بريئة في تلك الأيام. كنا نكبر ونصل لمرحلة الخطوبة وما زلنا نحتفظ بحس الطفولة. وسبحان الله حتى في عمري هذا أحب الطفولة أكثر لأنها أرقى وأفضل وأنقى.

كانت اجتماعاتنا الأسرية جميلة جداً؛ نسهر أو نلعب أو نشاهد التلفزيون. في ذلك الوقت كان الموعد اليومي لبرامج الأطفال هو الساعة الثانية تقريباً. كنا نتمدد كلنا في الغرفة لنشاهدها. وبعدها يحين وقت الغداء. كانت لحظات حلوة جداً وكنا سعداء بكل معنى الكلمة وبكل أحاسيسنا.

لطالما أحببت جو القرية أكثر من المدينة. منذ بدأنا بدخول مرحلة الصبا كانت أختي تقول: «يا رب يجيني واحد عايش بالشام، ما بدي واحد من الضيعة»، وأنا أجيبها: «يا رب يجيني واحد من الضيعة. ما بحب المدينة وما بحب الأماكن المغلقة. بحب البيت والمكان الواسع وبحب الناس وبحب شارك حياتي مع الناس سواء بالفرح أو بأي شيء». سبحان الله تزوجتُ أحد أقاربي وبقيت في القرية.

شعرت بعد زواجي أنني انتقلت إلى بيئة أخرى. كانت طبيعة أهلي وطريقة حياتهم مختلفة عن أهل زوجي كثيراً، ومع ذلك تعايشت وتكيفت مع الحياة الجديدة. رغم أن أهلي كانوا يسكنون في ضيعة لكنهم عاشوا كما لو أنهم في مدينة؛ لم نكن نمتلك أرضاً ولهذا كانت حياتنا مريحة وليست متعبة. بينما كان أهل زوجي يملكون أراضٍ يعملون بها في الحصاد أو في مواسم الفواكه. لكنني أحببت هذا الجو. تأقلمت مع حياتي الجديدة كأنني عشت فيها دائماً. كنت سعيدة معهم وكانوا سعداء معي.

كانت أحوال زوجي المادية جيدة. نمتلك بيتنا الخاص ونمتلك أرضاً ولدينا موتور كوسيلة للتنقل. كنت ربة منزل. والحمد لله كنت سعيدة جداً مع زوجي فقد كنا نشبه بعضنا كثيراً. كان مرحاً ومحبوباً ومضيافاً يزوره الكثيرون. أحسست أننا متوافقان ومتفاهمان جداً ولم نعان من مشاكل. كانت علاقاتنا بالآخرين حولنا جيدة وأينما وُجدنا كنا محبوبين.
بدأ زوجي بمشروع بيوت بلاستيكية لزراعة الورد والقرنفل. كنا سعداء جداً به. كنا ننزل إلى البستان الرائع المحيط ببيتنا. كنت آخذ له الشاي وهو يعمل ونتحادث ونضحك كثيراً.

بدأت الثورة بمظاهرات سلمية. شارك زوجي بمظاهرة في إدلب وقعت بعدها مجزرة، وحكى لي كيف أنه لم تكن معهم أسلحة من أي نوع. كانوا يطلبون الحرية فقط لكن النظام واجههم بأسلحة كثيرة ودبابات.

كنا قد أسسنا مشروع البيوت البلاستيكية قبل الثورة بخمسة أشهر تقريباً، وبدأ بالإنتاج وصرنا نبيع الورود قبل بداية الثورة بشهرين. ثم اعتقل زوجي والمشروع دُمّر. بعد اعتقاله بشهرين أو ثلاثة نزحنا مع أهل قريتنا لقرية أخرى وبقينا هناك ثمانية أشهر وانقطع الماء والكهرباء، والورد يحتاج للسقي دائماً. ومشروعنا بالذات يحتاج عناية دائمة حتى ينتج. لكن كل شيء دُمّر وليس فقط مشروعنا.

قبل اعتقال زوجي نزحنا إلى حلب لخمسة عشر يوماً. كنا مهددين بأن الجيش سيقتحم قريتنا. غادر الأهالي جميعهم وفرغت البيوت وبقي الثوار. عند ركوبنا السيارة كنا جميعاً، حتى الأطفال، نقرأ القرآن وندعو الله أن نصل بخير. قبل وصولنا إلى حلب أوقفنا حاجز بعناصره المدججين بالبنادق. كانت المرة الأولى التي نرى فيها العساكر وجهاً لوجه وكانت لحاهم طويلة. أوقفونا وسألوا السائق إلى أين نذهب؟ وإذا كنا هاربين؟ ومن أي قرية نحن؟

كان النزوح صعباً جداً علينا. لم يكن سهلاً أن نسكن بيوتاً غير بيوتنا. نزحت إلى بيت أخت زوجي وكنا لا نخرج أبداً. أنا وأخت زوجي وأختها الثانية وزوجة أخيهم كنا في البيت نفسه. عندي ستة أطفال وسلفتي ستة وأخت زوجي ستة وأخت زوجي الثانية خمسة. عانينا كثيراً، وعندما قالوا إننا سنرجع إلى قريتنا أحسست أن طاقة الفرج قد فُتحت.

بعد نزوحنا إلى حلب دخل النظام إلى قريتنا. امتلأت الشوارع بالرصاص. تمركز الجيش وأصبحت حولنا نقاط عسكرية. بيتنا على تلة وصار محاطاً بثلاثة؛ أمامنا وخلفنا وبجانبنا. كانت القرية قد أصبحت مثل الغابة، خالية وليس فيها بشر. أحسسنا أننا أتينا إلى مكان غريب. وابتدأ القنص على بيتنا. كنت عندما أخرج يبدؤون بالقنص. انقطعت المياه وصرنا نستخرجها بالدلو، وفي المكان الذي كنت أعبئ منه الماء كان القنص فوقي تقريباً.

كان اليوم الأخير الذي رأيت فيه زوجي ورآه أولاده بتاريـخ 09/09/2011 وكان يوم جمعة. كان مرابطاً وغائباً عن البيت منذ ثلاثة أيام. أتى وكان الجو حاراً فاستحم. كنت قد حضّرت الغداء فأكل وجلسنا قليلاً وتحدثنا. كان عمر ابننا الصغير خمسة أشهر، وكان متعلقاً به جداً. في اليوم الذي اعتقل فيه لعب معه كثيراً وضمه وقبّله ثم قال لي: «تعبت، نعسان بدي نام». قلت له أن ينام ساعة ليرتاح فقال إنه لا يستطيع لأن بيتنا بعيد عن الحارة وإذا طوّقوه فلا طريق للهرب. ولهذا سيذهب لينام في بيت أخيه فهو أكثر أماناً.

خرج من البيت وعاد مرة أخرى ودخل وقبّل ابنه وأوصاني به وبإخوته، ذهب وبدأت بترتيب البيت، سمعت إطلاق نار فخرجت إلى الشرفة ورأيت العساكر التابعين للحاجز الذي يقابلنا ينزلون باتجاه الحارة وشباب الحارة كلهم هربوا إلى الأراضي الزراعية لأنهم علموا أنهم سيداهمون البيوت، لكن للأسف الشديد لم يكن الحاجز ينوي ذلك، فقد حدث انشقاق بين العساكر وكانوا خارجين يبحثون عن المنشقين في الأراضي الزراعية، وعندها عثروا على الشبان المختبئين هناك، كان زوجي وأخوه وأعمامه ورفاقه، تقريباً اثنا عشر رجلاً.

اعتقلوا زوجي بين السادسة والنصف والسابعة، بعد نزول العساكر وعودتهم إلى الحاجز كان معهم شاب رأيناه بوضوح، يجلس على ركبتيه وكانوا قد غطوا وجهه بقميصه وكان يرتدي لباس مثل لباس زوجي تماماً؛ بلوزة حمراء وبنطلون أسود. كنت أراه، وأخته أيضاً رأته، لكننا كذّبنا أعيننا وقلنا مستحيل أن يكون هو، يستحيل أن يكون زوجي من أمسكوا به. قالت ابنتي إنه أبوها وللأسف كانت على حق. عرفنا أنه هو بعد عودة الشباب المختبئين.

فوراً بدأت بالاتصالات، ثم تركت أولادي في البيت وذهبت لأتأكد من أخيه الذي كان موجوداً في الجهة الثانية مكان اعتقال زوجي. كان منهاراً أيضاً، يصرخ ويتصل بمعارفه ويقول لهم: أخذوا أخي. شاهدهم كيف ضربوه وأخذوه.

في تلك اللحظة أحسست مثل شخص كان في غرفة مضاءة وفجأة صار كل شيء بلونٍ أسود كأنه أصيب بالعمى، ودخلت في عالم ممتلئ بالأشباح. عدت إلى البيت وأنا أكلم نفسي وأتساءل كيف سأخبر الأولاد. طبعاً وجدتهم كلهم ينتظرونني، ابني الكبير رآني من مسافة أربعين متراً وصار يصرخ: «وين بابا؟»، كان يبكي ويقفز عن الأرض ويسأل: «وين بابا؟». وصلت إليهم ولم أخبرهم، لم أمتلك القدرة لأفعل. بعد ذلك لم أجد بداً من إخبارهم فقلت: أبوكم اعتقله النظام. ملأ صراخهم الحارة وبكوا، بكوا كثيراً وأنا بكيت، وبقينا هكذا حتى طلوع الصبح.

إحباط ويأس وقهر.. امتلأ رأسي بالسواد وأنا أسمع أصوات أولادي، قلت لنفسي إنني انتهيت وإنه لم يعد هناك أمل في الحياة وإنني لن أستطيع العيش بعد الآن. كان الأساس الذي استندنا عليه وفجأة انهار هذا الأساس. لم يكن ما حدث سهلاً، وكنا نحتاج وقتاً طويلاً حتى نبدأ مرة أخرى من الصفر.

في البداية كنت أفكر في مصيبتي فقط ولم أفكر في مصائب الآخرين. كنت أقول: «يا ربي ليش أنا؟ وليش أولادي؟ وشو السبب فجأة راح زوجي؟». وبعد أن سمعت حكايات غيري صرت أقول: «الحمد لله. يلي بشوف مصيبة غيره بتهون عليه مصيبته». صرنا نواسي بعضنا بالمصائب التي مررنا بها. كانت أمي تزورني وتشجعني على تقوية إيماني بقدرة الله على كل شيء، وتنبهني إلى أن أولادي لم يبق لهم غيري بعد أن حُرموا من أبيهم فيجب ألا أحرمهم مني. واستني وشجعتني لأنهض. كانت تدعمني بكلماتها بأن الله لن ينسانا. كنت يائسة لكن بفضل دعمها تجاوزت هذه المرحلة الصعبة وعدت إلى الحياة مرة أخرى. قررت أني يجب أن أخرج من اليأس، حتى لو راح زوجي لكن هناك أولادي ويجب ألا أدخلهم في حالتي اليائسة فهم أطفال وسيتأثرون كثيراً، وما سيعيشونه في هذا العمر سيبقى راسخاً في أذهانهم.

هناك موقف يحزّ في قلبي كثيراً. بعد اعتقال زوجي بسنة تقريباً كان ابني الصغير في حديقة البيت وكان الحاجز يطل على بيتنا مباشرة. كما قلت كنا محاطين بثلاثة حواجز وإذا قمنا بأي حركة يقنصون علينا. في ذلك الوقت كانت الكهرباء مقطوعة دائماً وكنا نأتي بالمياه من الجب. وبينما كنت أعبئ الماء صاروا يحاولون قنصي فخفت وابتعدت. حاولنا أن نختبئ وكنت مع ابنتي الكبرى في جهة وابني الصغير، الذي كان عمره سنة وثمانية أشهر، في جهة أخرى. أوقفوا القنص من جهتنا وصاروا يقنصون على الولد وضربوا ثلاث طلقات بجانبه. في هذه اللحظة أحسست بالشلل، وركضت ابنتي تحت الرعب والقنص وحملت أخاها وعادت به. عند وصولها وهي تحمله انهارت نفسيتي وصرت أقول: «أنا أمه، شلون هيك صار معي! كان لازم زت حالي على الموت مشان جيب ابني». صرت ألوم نفسي وأحسست أنني مذنبة وأنه لم يكن يجب على ابنتي أن تعرّض حياتها للخطر لتنقذ أخاها وأنه كان يجب عليّ أنا فعل ذلك. سبحان الله كلما تذكرت هذا المشهد أحس ببركان ينفجر داخلي وأتمنى لو تعود تلك اللحظة لأنقذ ابني حتى لو مت. لمت نفسي دائماً لكني عندما تابعت الدعم النفسي صرت أفكر أنه

من شدة حبي لابني ومن رعبي عليه شعرت بالعجز عن الحركة، وكان يمكن أن أصاب بجلطة وبتوقف في القلب. صرت أخرج نفسي من هذه الحالة. لم أعد أريد الاستمرار في لوم نفسي فأنا أعرف أنني أحب أولادي وأنني مستعدة أن أموت لأجلهم.

بعد اعتقال زوجي بدأ الصراع الأكبر المرير. كنت أشعر بالقوة والأمان بوجوده. لم يعد هناك استقرار وتأثرت أحوالنا المادية ولم يعد بمقدورنا تأمين مستلزماتنا خصوصاً أن الأسعار أصبحت خيالية. وصارت الحياة صعبة جداً بوجود القصف. كنت أترك أولادي في البيت وأذهب لآتي بالخبز وأسأل نفسي: «هل سأرجع؟ هل سيقصفون بيتي في غيابي؟». كان أهل الحارة ينزحون أحياناً وينسوننا ونبقى أنا وأولادي وهم يبكون ويقولون: «يا إمي كلهم راحوا وتركونا». صار الكل يهتم بنفسه.

كان أهلي هم الداعمون الأساسيون لنا لكنهم كانوا يعيشون في حارة أخرى. لم يكن باستطاعتهم أن يأتوا إلينا إذا نزحوا فالطريق بيننا مقطوعة. كانوا ينزحون إلى مكان وأنا أنزح إلى مكان آخر.

مرة نزحنا من قريتنا إلى قرية بجوارنا وبقينا فيها ثمانية أشهر. كانت أوضاعها مستقرة ولم يكن هناك قصف وعادت الكهرباء وكان الأكل والشرب فيها مؤمّنين والحياة أسهل من قريتنا. لكن بعد ثمانية أشهر بدأ القصف على هذه القرية فجأة من الثامنة مساء حتى الثانية ليلاً.

استشهد كثيرون وكان الجرحى أكثر. اختبأنا في الإسطبلات التي كانوا يضعون الأغنام فيها. بقينا هناك حتى الصباح وعدنا إلى قريتنا. وصلنا في الساعة العاشرة صباحاً ونظفنا البيت واستقررنا. في المغرب بدأ القصف بشكل فظيع. نزلنا إلى المستودع وأشعلنا شمعة وبقينا هناك، ولم يتوقف القصف حتى الصباح.

في عام 2013 خرجنا إلى تركيا. صحيح أننا كنا ننزح قبل ذلك لكننا كنا نعلم أننا في بلدنا، وأننا سنرجع ولن نترك بيوتنا وأرزاقنا وأهلنا. أما هذه المرة فتركنا كل شيء، قلوبنا وذكرياتنا الحلوة. كان خروجنا صعباً جداً. كان على أمل أن نبقى بضعة أشهر ونرجع بعدها ولم نتوقع أن نبقى كل هذه المدة.

في ذلك الوقت كان التهريب أسهل من الآن. عبرنا من سوريا إلى تركيا في يوم واحد. خرجنا الساعة الحادية عشر ووصلنا تركيا الساعة السادسة. وعند وصولنا إلى مخيم «أضنة» كان المنظر مرعباً. أكثر من مائتي شخص على بابه وقالوا لنا: «شو جابكم؟ ما قالولكم ما عم يدخّلوا حدا؟ نحن صرلنا 20 يوم وفي عالم من شهر وحتى في عالم من شهرين!».

في اليوم التالي ذهبنا إلى afad وشرحنا لهم وضعنا. سألني الموظف عن زوجي فقلت له إنه مفقود وسألني عن أولادي فقلت له إنهم ستة فأعطاني خيمة. ومن فرحتي لم أصدّق! في ذلك الوقت صار امتلاك خيمة نأوي إليها من أعظم الأمور. فرحت كثيراً. كان ابن عمي يملك خيمتين فقال له الموظف أن يعطي خيمة لأهلي. أحسسنا أنها معجزة.

بقيت سنتين ونصفاً في المخيم. كانت الحياة صعبة جداً. أولاً كنا نعيش في خيمة بسحّاب ولم يكن معي رجل، فقط أنا وأولادي. كنا ننام ونحن خائفون ثم تأقلمنا. كان كل شيء صعباً وكل شيء مشتركاً، الحمامات والمطابخ والغسيل، ولم تكن هناك أي خصوصية. خيمتي بجانب خيمة جاري وحتى عندما كنا نتكلم همساً نسمع بعضنا. كل شيء كان مفتوحاً وليست هناك أسرار أبداً، إذا أردنا الذهاب إلى الحمام فالكل سيعرف. وإذا أراد الأولاد الاستحمام كنت أحمل الدلو وأمشي به مسافة. عندما نريد أن نجلي نحمل الصينية ونقف في الدور لنصل إلى الماء، وعند انقطاع المياه كان السكان يتشاجرون. كل شيء كان مؤمّناً لكن عاش الناس بدون نظام. على الرغم من أننا نعيش في المخيم ويجب أن نساعد بعضنا إلا أن العكس هو ما كان يحصل.

في المخيم تعرفت على امرأة كان الجميع يظنها خالتي من محبتها لي. كانت إنسانة لا تُنسى. كانت تقول لي: «إنت روحي، عندي بنات أخت ما بحبهن متلك». كانت معينة لي طيلة مكوثي في المخيم.

بعدها ذهبت إلى جمعية للأيتام في غازي عنتاب. أعطتنا شقة أقمنا فيها ضمن بناء من عائلات مثلنا. للجمعية نظام علينا أن نلتزم به. لم يكن هناك أي مورد مالي ولهذا كنا نرضخ لأي جهة نلجأ إليها. كنا نحتاج إلى البيت والأكل للأولاد ولهذا نصبر. منذ بداية مجيئنا إلى الجمعية فرض عليّ نظام يجب أن ألتزم به. فقط أيام السبت أو الأحد نستطيع الخروج، نأخذ الإذن ونسجل أين سنذهب ورقم الهاتف والإثبات على ذلك حتى يسمحوا لنا. وحتى نحن الأمهات كنا مقيدين بوقت محدد للنوم إن كنا نسهر مع بعض. صار يحزّ في قلبي أننا كنا مستقرين في بيوتنا ولا يحكمنا أحد، وبعد أن صرت أماً وعندي أطفال أتى من يحدد لي موعد نومي واستيقاظي وحياتي. حتى أخي مثلاً كان ممنوعاً من زيارتي!

بقيت في مجمع الأيتام سنتين ونصفاً كذلك، من عام 2016 حتى عام 2019. وبعدها خرجت وأخذت بيتاً مستقلاً. كانت التجربة حلوة ومرة في الوقت نفسه. فرضت الجمعية التزامات علينا لكنها أمّنت لنا فرصاً وتعلمنا. «الله يجزيهم الخير، الواحد ما بنكر المعروف».

بعدها أتتنا فرصة ذهبية بسبب ابني الكبير فقد شارك في فيلم عالمي عن أطفال سوريا. قابلت المخرجة الكثير من الأطفال واختارت منهم سبعة أو ثمانية كان بينهم وأخذ بطولة الفيلم. كان عمره تسع سنوات. كل من هؤلاء الأطفال يحكي قصته الحقيقية وابني حكى قصته عن أبيه المعتقل. اسم الفيلم «لا تتركني». كان افتتاحه في أنطاليا وشاهدناه في السينما لأول مرة باللغة العربية كما مثّله الأولاد، وفي المرة الثانية في إسطنبول مدبلجاً إلى التركية. كانت هناك كاميرات وهناك من يريد رقمي وهناك من يريد أن يسألني بما أنني أم أحمد. لم أعش مثل هذه التجربة من قبل.

بعد فترة قال ممول الفيلم إنه يريد أن يسكننا بيتاً خاصاً لنرتاح وتتحسن نفسياتنا. وفعلاً خرجنا واختلف الوضع كثيراً. نقيم في هذا البيت منذ أربع سنوات، وسجلت بكرت الهلال، والحمد لله مستورين. كانت المعيشة قبل أسهل والعبء أخف، لكن بعد أن كبر الأولاد وتغير المستوى المعيشي والمستلزمات صارت التكاليف أكبر. أريد أن تتحسن الأحوال المادية لأن أملي بمستقبل أولادي. أتمنى أن يصبح عندي عملي الخاص وأكفي نفسي وأولادي من جهدي. «الله يجزي الخير لكل شخص مشي معنا خطوة بخطوة، بس بتمنى يصير معي مبلغ من تعبي أنا».

تلقيت دعماً نفسياً في جلسات ساعدتني في التوعية بالأمور التي مررنا بها. وأحس أنني الآن متصالحة مع نفسي ولم أعد أشعر بالصعوبات، رغم الفقدان والتهجير والحرب والغربة. أحس أنني قوية والحمد لله.

أتمنى أن أعرف مصير زوجي الذي مرت عشر سنوات وهو مفقود. يجب على العدالة أن تنصف المعتقلين والمفقودين الذين صنفهم النظام على أنهم إرهابيون بينما هم لم يؤذوا أحداً. أين العدالة من هؤلاء المفقودين ومن العذاب الذي يتعرضون له ومن عذاب الأهالي الذين يعانون من فقدان الأشخاص مجهولي المصير؟ أتمنى أن نعرف مصير أزواجنا ويأخذ أولادنا حقهم. أريد أن يعرف العالم مقدار ظلمنا وكيف دُمّر شعبنا وقُهر. الشعب السوري لا ذنب له ويجب أن يتم إنصافه. ما ذنبنا كي نعيش الألم والأسى من الجميع؟ أحس أن الدنيا كلها حاربت سوريا.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & Missing in Sednaya Prison